شرح القواعد الأربع

للإمام محمد بن عبد الوهاب

شرح

سماحة الشيخ العلامة الإمام

عبد العزيز بن عبد الله بن باز



ترجمة المؤلف
الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله

اسمه ونسبه:

هو محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي بن محمد بن أحمد بن راشد التميمي.

مولده ونشأته:

ولد سنة ١١١٥هـ الموافقة لسنة ١٧٠٣م في بلدة العُيَيْنة الواقعة شمال الرياض، ونشأ في حِجْر أبيه في تلك البلدة.

وقد ظهرت عليه علامات النَّجابة والفطنة في صغره؛ فقد حفظ القرآن الكريم قبل بلوغ العاشرة، وبلغ الاحتلام قبل إتمام الاثنتي عشرة سنة، قال أبوه: رأيته أهلًا للصلاة بالجماعة، وزوَّجته في ذلك العام.

طلبه للعلم:

درس على والده الفقه الحنبلي والتفسيرَ والحديثَ، وكان في صغره مكبًّا على كتب التفسير والحديث والعقائد، وكان كثير الاعتناء والمطالعة بكتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذِهِ العلّامة ابن القيِّم.

رحلاته:

رحل إلى مكة قاصدًا حج بيت الله الحرام، ثم زار مسجد رسول الله ﷺ، والتقى هناك بعلماء المدينة النبويَّة، واستفاد منهم، ثم رحل إلى البصرة فأقام فيها

مدة درس العلم فيها على جماعة من العلماء، ثم رحل إلى نجد مرورًا بالأحساء، وفي رحلته الطويلة هذه رأى الشيخ بثاقب نظره ما بنجد والأقطار التي زارها من العقائد الضالة والعادات الفاسدة، فصمّم على القيام بالدعوة إلى التوحيد ونبذ الخرافات والشِّركيات.

بدء دعوة الشيخ الإصلاحية:

بعد أن ثبت وتحقَّق لديه حالتهم السيئة في دينهم ودنياهم، وأيقن أنهم قد أدخلوا في أصول الإسلام العليا ما يأباه القرآن وتأباه السنة، قوي عقيدتَه بخطئهم وركونهم إلى البدع ما جاء في السنة بأن المسلمين لا بد أن يغيروا، وأن يسلكوا مسالك الذين قبلهم. حينئذٍ صمّم الشيخ أن يعلن لقومه بأنهم قد ضلوا الطريق السوي، وزاغوا عن منهج الصواب.

وقد ابتدأ الشيخ ﷺ دعوته يبين لهم أن لا يدعىٰ إلا الله، ولا يذبح ولا ينذر إلا له.

ومن عقيدتهم في تلك القبور والأحجار والأشجار الاستغاثة بها وصرف النذور إليها، واعتقاد النفع والضر، فبيَّن أن ذلك كله ضلال وزور، وأنهم في حالة لا ترضي الله، فلابد من نبذ ذلك ورده.

وعزز كلامه بالآيات من كتاب الله، وأقوال الرسول ﷺ وأفعاله، وسيرة أصحابه رضوان الله عليهم أجمعين.

عقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمة الله عليه:

عقيدة الشيخ هي كعقيدة السلف الصالح، وهي ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه والتابعون والأئمة المهتدون؛ كأبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد وسفيان الثوري وسفيان بن عيينة وابن المبارك والبخاريّ ومسلم وأبي داود وسائر

أهل السنّة، وأمثالهم ممن تبعهم من أهل الفقه والأثر؛ كالأشعري وابن خزيمة وتقي الدين بن تيمية وابن القيم والذهبي، وغيرهم - رحمهم الله تعالى جميعًا -.

وفاته رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وبعد حياة مليئة بالعلم، والجهاد، والدعوة إلى الله سبحانه، توفي الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بلدة الدرعية سنة (١٢٠٦ هـ).

نسأل الله له الرحمة والرضوان، وأن يجمعنا وإيّاه في غرف الجنان، برحمة ربّنا العظيم المنّان(١).

---

(١) باختصار من ترجمة الشيخ باسم الجوابرة له في مقدمة كتاب أصول الإيمان.

ترجمة الشارح
الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز(١)

أنا عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله آل باز.

ولدت بمدينة الرياض في ذي الحجة سنة ١٣٣٠ هـ. وكنت بصيرًا في أول الدراسة، ثم أصابني المرض في عيني عام ١٣٤٦ هـ فضعف بصري بسبب ذلك، ثم ذهب بالكلية في مستهل محرم من عام ١٣٥٠ هـ، والحمد لله على ذلك، وأسأل الله جل وعلا أن يعوضني عنه بالبصيرة في الدنيا والجزاء الحسن في الآخرة، كما وعد بذلك سبحانه على لسان نبيه محمد ﷺ، كما أسأله سبحانه أن يجعل العاقبة حميدة في الدنيا والآخرة.

وقد بدأت الدراسة منذ الصغر، وحفظت القرآن الكريم قبل البلوغ، ثم بدأت في تلقي العلوم الشرعية والعربية على أيدي كثير من علماء الرياض؛ من أعلامهم:

١- الشيخ محمد بن عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن ابن الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمهم الله.

٢- الشيخ صالح بن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن حسن ابن الشيخ محمد بن عبدالوهاب. قاضي الرياض - رحمهم الله.

٣- الشيخ سعد بن حمد بن عتيق (قاضي الرياض) رَحِمَهُ اللَّهُ.

٤- الشيخ حمد بن فارس (وكيل بيت المال بالرياض) رَحِمَهُ اللَّهُ.

(١) تفضل سماحة الشيخ عبد العزيز بإملاء نبذة عن حياته وقرئت عليه بعد كتابتها فأقرها.

٥- الشيخ سعد وقاص البخاري (من علماء مكة المكرمة) رَحِمَهُ اللَّهُ، أخذت عنه علم التجويد في عام ١٣٥٥ هـ.

٦- سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ، وقد لازمت حلقاته نحوًا من عشر سنوات، وتلقيت عنه جميع العلوم الشرعية، ابتداء من سنة ١٣٤٧ هـ إلى سنة ١٣٥٧ هـ حيث رشحت للقضاء من قبل سماحته.

جزى الله الجميع أفضل الجزاء وأحسنه، وتغمدهم جميعًا برحمته ورضوانه.

وقد توليت عدة أعمال؛ هي:

١- القضاء في منطقة الخرج مدة طويلة استمرت أربعة عشر عامًا وأشهرًا، وامتدت بين سنتي ١٣٥٧ هـ إلى عام ١٣٧١ هـ. وقد كان التعيين في جمادى الآخرة من عام ١٣٥٧ هـ، وبقيت إلى نهاية عام ١٣٧١ هـ.

٢- التدريس في المعهد العلمي بالرياض سنة ١٣٧٢ هـ، وكلية الشريعة بالرياض بعد إنشائها سنة ١٣٧٣ هـ في علوم الفقه والتوحيد والحديث، واستمر عملي على ذلك تسع سنوات انتهت في عام ١٣٨٠ هـ.

٣- عينت في عام ١٣٨١ هـ نائبًا لرئيس الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وبقيت في هذا المنصب إلى عام ١٣٩٠ هـ.

٤- توليت رئاسة الجامعة الإسلامية في سنة ١٣٩٠ هـ بعد وفاة رئيسها شيخنا الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في رمضان عام ١٣٨٩ هـ، وبقيت في هذا المنصب إلى سنة ١٣٩٥ هـ.

٥- وفي ١٤/١٠/١٣٩٥ هـ صدر الأمر الملكي بتعييني في منصب الرئيس العام لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، وبقيت في هذا المنصب إلى سنة ١٤١٤ هـ.

٦- وفي ٢٠/١/١٤١٤ هـ صدر الأمر الملكي بتعييني في منصب المفتي العام للمملكة، ورئيس هيئة كبار العلماء، ورئيس إدارة البحوث العلمية والإفتاء.

أسأل الله العون والتوفيق والسداد.

ولي إلىٰ جانب هذا العمل في الوقت الحاضر عضوية في كثير من المجالس العلمية والإسلامية؛ من ذلك:

١- رئاسة هيئة كبار العلماء بالمملكة.

٢- رئاسة اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء في الهيئة المذكورة.

٣- عضوية ورئاسة المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي.

٤- رئاسة المجلس الأعلىٰ العالمي للمساجد.

٥- رئاسة المجمع الفقهي الإسلامي بمكة المكرمة التابع لرابطة العالم الإسلامي.

٦- عضوية المجلس الأعلىٰ للجامعة الإسلامية في المدينة المنورة.

٧- عضوية الهيئة العليا للدعوة الإسلامية في المملكة.

أما مؤلفاتي؛ فمنها:

١- «الفوائد الجلية في المباحث الفرضية».

٢- «التحقيق والإيضاح لكثير من مسائل الحج والعمرة والزيارة» (توضيح المناسك).

٣- «التحذير من البدع»، ويشتمل علىٰ أربع مقالات مفيدة: (حكم الاحتفال بالمولد النبوي، وليلة الإسراء والمعراج، وليلة النصف من شعبان، وتكذيب الرؤيا

المزعومة من خادم الحجرة النبوية المسمىٰ الشيخ أحمد».

٤- رسالتان موجزتان في الزكاة والصيام.

٥- «العقيدة الصحيحة وما يضادها».

٦- «وجوب العمل بسنة الرسول ﷺ، وكفر من أنكرها».

٧- «الدعوة إلىٰ الله وأخلاق الدعاة».

٨- «وجوب تحكيم شرع الله ونبذ ما خالفه».

٩- «حكم السفور والحجاب ونكاح الشغار».

١٠- «نقد القومية العربية».

١١- «الجواب المفيد في حكم التصوير».

١٢- «الشيخ محمد بن عبد الوهاب (دعوته وسيرته)».

١٣- «ثلاث رسائل في الصلاة»: (١- كيفية صلاة النبي ﷺ، ٢- وجوب أداء الصلاة في جماعة، ٣- أين يضع المصلي يديه حين الرفع من الركوع؟).

١٤- «حكم الإسلام فيمن طعن في القرآن أو في رسول الله ﷺ».

١٥- «حاشية مفيدة علىٰ فتح الباري»، وصلت فيها إلىٰ كتاب الحج.

١٦- «رسالة الأدلة النقلية والحسية علىٰ جريان الشمس وسكون الأرض وإمكان الصعود إلىٰ الكواكب».

١٧- «إقامة البراهين علىٰ حكم من استغاث بغير الله أو صدق الكهنة والعرافين».

١٨- «الجهاد في سبيل الله».

١٩- «الدروس المهمة لعامة الأمة».

٢٠- «فتاوى تتعلق بأحكام الحج والعمرة والزيارة».

٢١- «وجوب لزوم السنة والحذر من البدعة».

تعريف الشارح بالكتاب

قال الشيخ عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد حمد الله والصلاة والسلام على رسول الله.

أما بعد:

فهذه القواعد الأربع نبَّه عليها المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهي قواعد مهمة، فمن عقلها وفهمها جيدًا، فَهِمَ دين المشركين وفَهِمَ دين المسلمين، وأغلبُ الخلق لا يفهمُ هذه القواعد، ولهذا التبست عليهم، فعبدوا القبور وأصحابها والأولياء والأشجار والأحجار من دون الله، وهم يحسبون أنهم على شيء لجهلهم بحقيقة التوحيد، وحقيقة الشرك.

ومؤلف هذه القواعد هو الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو المجدد لما انْدَرَسَ من معالم الإسلام في هذه الجزيرة في النصف الثاني من القرن الثاني عشر المتوفى سنة ستٍّ ومائتين وألف من الهجرة النبوية.

□ **قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:**

أَسْأَلُ اللهَ الْكَرِيمَ رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ أَنْ يَتَوَلَّاكَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَأَنْ يَجْعَلَكَ مُبَارَكًا أَيْنَمَا كُنْتَ، وَأَنْ يَجْعَلَكَ مِمَّنْ إِذَا أُعْطِيَ شَكَرَ، وَإِذَا ابْتُلِيَ صَبَرَ، وَإِذَا أَذْنَبَ اسْتَغْفَرَ، فَإِنَّ هَؤُلاءِ الثَّلاثَ عُنْوَانُ السَّعَادَةِ.

○ **التعليق:**

يقول المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: أَسْأَلُ اللهَ الْكَرِيمَ رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ أَنْ يَتَوَلَّاكَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَأَنْ يَجْعَلَكَ مُبَارَكًا أَيْنَمَا كُنْتَ، وَأَنْ يَجْعَلَكَ مِمَّنْ إِذَا أُعْطِيَ شَكَرَ، وَإِذَا ابْتُلِيَ صَبَرَ، وَإِذَا أَذْنَبَ اسْتَغْفَرَ، فَإِنَّ هَؤُلاءِ الثَّلاثَ عُنْوَانُ السَّعَادَةِ.

فالمؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ يجمع فيها بين الإفادة، والدعاء للطالب، وهذا من النصح، أن يدعو للطالب بالتوفيق ويفيده، ولا شك أن الطالب إذا قَبِلَ اللهُ هذا الدعاء في حقه سَعِدَ.

وقوله: «وَأَنْ يَجْعَلَكَ مِمَّنْ إِذَا أُعْطِيَ شَكَرَ، وَإِذَا ابْتُلِيَ صَبَرَ، وَإِذَا أَذْنَبَ اسْتَغْفَرَ» فَإِنَّ هَؤُلاءِ الثَّلاثَ عُنْوَانُ «السَّعَادَةِ» وإذا حرص المؤمن على هذه الكلمات تمت سعادته، فهو يشكر الله على ما أعطاه بفعل أوامره وترك نواهيه، وإذا أذنب استغفر وتاب إلى الله، وهذا هو شأن المؤمن ولهذا يقول ﷺ: «عجبًا لأمرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»(١).

(١) أخرجه مسلم (٧٦٩٢) من حديث صهيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وهذا هو الواجب على المؤمن أنْ يشكر الله عند الرخاء، عند النعم، كالصحة والعافية، ونعمة الإسلام ونعمة الأولاد، ونعمة المال إلى غير ذلك، فهو يشكر الله عليها بطاعة أمره وترك نهيه يقول تعالى: ﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ [سبأ:١٣].

يعني أنْ يطيع أوامره وينتهي عن نواهيه، ويصرف النعم في طاعة المولى ﷻ، كما يصبر ويحتسب عند البلاء كالمرض أو موت الولد، ونحو ذلك، فلا يجزع ولا يشق جيبًا ولا يضرب خدًا، ولا يدعو بدعوى الجاهلية، ولا يتكلم بفحش، بل يتحمل ويصبر، وعند الذنوب يبادر بالتوبة والاستغفار.

❑ **قوله:**

«اعْلَمْ -أَرْشَدَكَ اللهُ لِطَاعَتِهِ-: أَنَّ الْحَنِيفِيَّةَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ، أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝﴾ [الذاريات:٥٦].

* فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ اللهَ خَلَقَكَ لِعِبَادَتِهِ، فَاعْلَمْ أَنَّ الْعِبَادَةَ لَا تُسَمَّىٰ عِبَادَةً إِلَّا مَعَ التَّوْحِيدِ، كَمَا أَنَّ الصَّلَاةَ لَا تُسَمَّىٰ صَلَاةً إِلَّا مَعَ الطَّهَارَةِ، فَإِذَا دَخَلَ الشِّرْكُ فِي الْعِبَادَةِ فَسَدَتْ، كَالْحَدَثِ إِذَا دَخَلَ فِي الطَّهَارَةِ.

* فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ الشِّرْكَ إِذَا خَالَطَ الْعِبَادَةَ أَفْسَدَهَا، وَأَحْبَطَ الْعَمَلَ، وَصَارَ صَاحِبُهُ مِنَ الْخَالِدِينَ فِي النَّارِ عَرَفْتَ أَنَّ أَهَمَّ مَا عَلَيْكَ: مَعْرِفَةُ ذَلِكَ، لَعَلَّ اللهَ أَنْ يُخَلِّصَكَ وَيُنَجِّيَكَ مِنْ هَذِهِ الشَّبَكَةِ، وَهِيَ الشِّرْكُ بِاللهِ، الَّذِي قَالَ تَعَالَىٰ فِيهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨، ١١٦]، وَذَلِكَ بِمَعْرِفَةِ أَرْبَعِ قَوَاعِدَ ذَكَرَهَا اللهُ تَعَالَىٰ فِي كِتَابِهِ».

○ **التعليق:**

فإذا عرف المؤمن أنَّ التوحيد إذا دخله الشرك أفسده، كما يفسد الحدث الطهارة، عرف أنَّه لا بد من معرفة التوحيد علىٰ حقيقته، والشرك علىٰ حقيقته حتىٰ لا يقع في الشرك، فيبطل توحيده ودينه، لأنَّ التوحيد هو دين الله وهو الإسلام، وهو الهدىٰ، فإذا فعل شيئًا من أنواع الشرك بطل هذا الإسلام، وبطل هذا الدين، كأنْ يدعو الأموات ويستغيث بهم، ويسب الدين، ويسب الله ورسوله ﷺ ويستهزئ بالله ورسوله ويستهزئ بالدين، ويعتقد حلَّ ما حرم الله مما هو معلوم من الدين

بالضرورة، كالزنا وأشباهه، فإذا أتىٰ بشيء من هذه النواقض بطل إسلامه، كما أنَّ من أتىٰ بناقض من نواقض الطهارة من ريح أو بول أو غائط بطلت طهارته، وهكذا توحيده وإسلامه، إذا فعل شيئًا من نواقضه بطل هذا التوحيد وهذا الإسلام، فمن جحد وجوب الصلاة كفر، ومن جحد تحريم الزنا كفر، ومن استغاث بالموتىٰ ونذر لهم كفر، وهكذا، ومما يبيّن حقيقة الدين أنْ نتعلم هذه القواعد التي جاءت في كتاب الله، فإذا درستها وتأملتها اتضح لك الأمر أكثر.

❊

القاعدة الأولى

* أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الْكُفَّارَ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُقِرُّونَ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ هُوَ الْخَالِقُ الرَّازِقُ الْمُدَبِّرُ، وَأَنَّ ذَلِكَ لَمْ يُدْخِلْهُمْ فِي الإِسْلَامِ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾ [يونس:٣١].

○ التعليق:

القاعدة الأولى: أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الْكُفَّارَ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ والصحابةُ مقرون بتوحيد الربوبية: بأن الله خالقهم ورازقهم ومدبر أمورهم، وليس عندهم في هذا شك، وَجُهَّال المسلمين اليوم يحسبون أنَّ هذا التوحيديكفي، وهذا من الجهل؛ إذْ صار المشركون أعلم منهم، فإذا أقرَّ أحدهم بالربوبية، وقال: إنَّ الله ربي وخالقي ورازقي، فإنَّ ذلك لا يكفي، فالمشركون أقروا بذلك يقول تعالىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف:٨٧] ، ويقول: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ [العنكبوت: ٦١] فالمشركون مُقِرُّونَ بذلك، قَالَ تَعَالَىٰ: (قُلْ) - يعني: يا محمد - ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾ [يونس:٣١].

بما أنَّكم تعرفون هذا أفلا تتقون الإشراك بالله، وترجعون إلىٰ التوحيد والحق، فهم يعرفون هذه الأمور ويقرون بها لله، ومع هذا لم ينفعهم ذلك، بل قاتلهم النبي

ﷺ، لأنهم ما خصوا الله بالعبادةِ بل أشركوا مع الله اللّات، والعُزّى، ومناة وأصنامهم الكثيرة.

فالتوحيد:

هو صرف العبادة لله وحده، والإيمان بأنه وحده المستحق لها دون ما سواه، ومما يبيّن لك هذا أنَّ المشركين يقولون: ما دعوناهم وما توجهنا إليهم - كما في القاعدة الثانية - إلا لطلب القربة والشفاعة.

❊

القاعدة الثانية

* أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: مَا دَعَوْنَاهُمْ وَتَوَجَّهْنَا إِلَيْهِمْ إِلَّا لِطَلَبِ الْقُرْبَةِ وَالشَّفَاعَةِ. فَدَلِيلُ الْقُرْبَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ۝٣﴾ [الزمر:٣]، وَدَلِيلُ الشَّفَاعَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس:١٨]

* وَالشَّفَاعَةُ شَفَاعَتَانِ: شَفَاعَةٌ مَنْفِيَّةٌ، وَشَفَاعَةٌ مُثْبَتَةٌ.

- فَالشَّفَاعَةُ الْمَنْفِيَّةُ: مَا كَانَتْ تُطْلَبُ مِنْ غَيْرِ اللهِ فِيمَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا اللهُ. وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ وَالْكَٰفِرُونَ هُمُ الظَّٰلِمُونَ ۝٢٥٤﴾ [البقرة:٢٥٤].

- وَالشَّفَاعَةُ الْمُثْبَتَةُ: هِيَ الَّتِي تُطْلَبُ مِنَ اللهِ، وَالشَّافِعُ مُكْرَمٌ بِالشَّفَاعَةِ، وَالْمَشْفُوعُ لَهُ مَنْ رَضِيَ اللهُ قَوْلَهُ وَعَمَلَهُ بَعْدَ الْإِذْنِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَن ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥].

التعليق:

يعني: ما قصدنا أنهم يخلقون أو يرزقون أو يدبرون الأمور أو يحيون الموتى،

فإنَّ ذلك كُلُّه لله ﷻ، ولكن قصدناهم لشفعوا لنا ليقربونا إلىٰ الله زلفىٰ؛ لأنَّهم أحسن منا، فهم أصحاب دين، ولهم طاعات، ولهم أعمال صالحات، ولهذا نعبدهم وندعوهم ونستغيث بهم ليقربونا إلىٰ الله وليشفعوا لنا، كما قال جلَّ وعلا عنهم في سورة الزمر: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣]، أنَّهم لم يعبدوا الأنبياء والصالحين إلا ليقربوهم إلىٰ الله زلفىٰ، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ ۝﴾ [الزمر:٣]، وقد سمَّاهم الله في هذه الآية بالكَذَبة، والكَفَرة فهذا يدل علىٰ أن عبادتهم إياهم لطلب التقريب أنه كُفْرٌ وردَّه، وإنَّ لم يقولون: أنَّهم يخلقون ويرزقون، فإنْ كانوا يدعونهم ويستغيثون بهم، وينذرون لهم ويذبحون لهم بقصد القربة وأنَّهم يشفعون لهم، فهذا هو الكفر فعله المشركون الأولون ولهذا سمَّاهم كَذَبة وكفرة، لأنَّهم كذبوا بقولهم: أنَّهم يقربونا إلىٰ الله وكفروا بهذا العمل: يقول سبحانه: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس:١٨].

فأقروا بأنَّ آلهتهم لا تنفع ولا تضر، وأنَّهم يشفعون لهم، ويقول الله جلَّ وعلا: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَـٰعَةُ ٱلشَّـٰفِعِينَ ۝﴾ [المدثر:٤٨]، ويقول تعالىٰ: ﴿مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ۝﴾ [غافر:١٨]، وهذا الشرك أبطل حصول الشفاعة لهم، ولم ينفعهم، بل ضرهم، وإنَّما الذي ينفعهم هو التوبة إلىٰ الله والاستقامة علىٰ التوحيد، وعبادة لله وحدة والبُعد عن الإشراك كما هو معنىٰ: «لا إله إلا الله» يعني: يخصون الله بالعبادة، والدعاء والخوف، والرجاء، والذبح؛ والنذر، ولا يشركون مع الله أحدًا لا نبيًا مرسلًا، ولا ملكًا مقربًا ولا جنيًا ولا غير ذلك، فهذا هو دين الله.

فإنَّ التوحيد والدين والإسلام هو: صرف العبادة لله وحده، وعدم صرفها لغيره، ولو زعم أنَّ الغير لا يخلق ولا يرزق، ومن صرف له عبادة من العبادة، فقد

كفر، وإنْ اعتقدوا هذا فهم يعلمون أنَّ معبوداتهم لا تخلق ولا ترزق، وأنها فقيرة ومملوكة فلم يعذرهم الله بذلك، بل كفّرهم بطلبهم الشفاعة من غير الله وصرفهم العبادة لغيره، فالحاصل أنَّ دعاءهم غير الله واستغاثتهم بغير الهل، وصرفهم بعض العبادات لغير الله، يجعل العبد مشركًا، وإنْ أقرَّ بأنَّ الله هو الخالق الرَّازق المدبر وإنْ أقرَّ أنَّ معبوداتهم لا تنفع ولا تضر، ولكنه يريد شفاعتهم، أو يريد أنْ يقربوه، فهذا لا يخلصه من الشرك، فالذي يعبد البدوي، أو يعبد الشيخ عبد القادر الجيلاني، أو يعبد الرسول ﷺ أو يعبد صنمًا أو جنيًا ويقول: إنَّه يعتقد أنه يقرّبه، ولا يعتقد أنه يخلق أو يرزق، فإنَّه يُبيَّنُ له أنَّ هذا هو الشرك الأكبر، وأنَّ هذا هو الدين المشركين الذي كانوا عليه، يقول تعالىٰ: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣]، فالواجب عليه أنْ يحذر هذا الدين - أي: دين المشركين - بالتوبة النصوح والإقلاع عن هذا الشرك، وتعليم من لم يفقه ذلك من إخوانه وعشيرته، وأهل بيته، وتعليم لم يفقه ذلك من إخوانه وعشيرته، وأهل بيته، ويكون عنده نشاط في تلك الدعوة ويحرص كذلك علىٰ تفهيمهم أنَّ قولهم: أنَّ الآلهة التي عبدوها لم يقدوها لنفعها أو لضرها، وإنَّما قصدوها لشفاعتها وتقريبها، فإنَّ هذا هو الشرك الأكبر، لكونهم قصدوا تقريبها إلىٰ الله وشفاعتها عنده فصرفوا لها العبادة، فهذا هو الشرك الأكبر.

◆◆◆

القاعدة الثالثة

* أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ظَهَرَ عَلَى أُنَاسٍ مُتَفَرِّقِينَ فِي عِبَادَتِهِمْ: مِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الْمَلَائِكَةَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الأَنْبِيَاءَ وَالصَّالِحِينَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الأَشْجَارَ وَالأَحْجَارَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ، وَقَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَلَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَهُمْ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال:٣٩].

* وَدَلِيلُ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [فصلت:٣٧].

* وَدَلِيلُ الْمَلَائِكَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا﴾ [آل عمران:٨٠].

* وَدَلِيلُ الأَنْبِيَاءِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾ [المائدة:١١٦].

* وَدَلِيلُ الصَّالِحِينَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء:٥٧].

* وَدَلِيلُ الأَشْجَارِ وَالأَحْجَارِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ

وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ [النجم:١٩-٢٠]، وَحَدِيثُ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ رضي الله عنه قَالَ: «خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ إِلَىٰ حُنَيْنٍ، وَنَحْنُ حُدَثَاءُ عَهْدٍ بِكُفْرٍ(١)، وَلِلْمُشْرِكِينَ سِدْرَةٌ يَعْكُفُونَ عِنْدَهَا، وَيَنُوطُونَ بِهَا(٢) أَسْلِحَتَهُمْ يُقَالُ لَهَا: ذَاتُ أَنْوَاطٍ(٣)، فَمَرَرْنَا بِسِدْرَةٍ فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ، كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ»(٤) الْحَدِيثُ.

○ التعليق:

[العبادة ليست تعرف بآراء الناس وإنما هي بحكم الله عز وجل، فالمشركون الأولون معبوداتهم أقسام؛ منهم من يعبد الأصنام، ومنهم من يعبد الأنبياء، ومنهم من يعبد الصالحين، ومنهم من يعبد الأشجار والأحجار، ومنهم من يعبد غير ذلك، فليسوا علىٰ حد سواء، وقد كفَّرهم الله جميعًا حتىٰ يدخلوا في دين الله، وحتىٰ يعبدوا الله وحده، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [آل عمران:٨٠]، فجعل عباد النبيين والملائكة كفارًا، إذا لم ينصاعوا إلىٰ الحق، ومعلوم أن أهل الطائف يعبدون اللات، وهو رجل صالح فكفَّرهم الله، حتىٰ دخلوا في الإسلام، وقاتلهم النبي ﷺ حتىٰ دخلوا في الإسلام، وهكذا النصارىٰ يعبدون المسيح، ويعبدون أمه، والمسيح نبي، وأمه صديقة، وهم

---

(١) حدثاء عهد بكفر: يعني قريب عهد بالكفر والخروج منه والدخول في الإسلام وأنه لم يتمكن الدين من قلوبهم. انظر النهاية في غريب الحديث لابن الأثير ص ١٩٢.

(٢) ينوطون: أي يعلقون بها أسلحتهم، تبركًا بها وتعظيمًا لها.

(٣) ذات أنواط: هي اسم لشجرة بعينها كانت للمشركين ينوطون بها سلاحهم، النهاية في غريب الحديث لابن الأثير ص ٩٤٦.

(٤) أخرجه الترمذي (٢١٨٠)، وصححه العلامة الألباني في «صحيح وضعيف سنن الترمذي».

كفار بذلك، وهكذا اليهود عبدوا أحبارهم ورهبانهم وعبدوا عزيرًا، وقالوا: إنه ابن الله، وهم كفار بذلك.

والله جل وعلا قال في محكم التنزيل: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ۝٥٦ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ۝٥٧﴾ [الإسراء: ٥٦، ٥٧]، أخبر سبحانه عن بعض المشركين أنهم يعبدون ناسًا صالحين يبتغون إلى ربهم الوسيلة، ويرجون رحمته، ويخافون عذابه، فأنكر عبادتهم من دون الله، وبيَّن أنهم لا يملكون كشف الضر عن عابديهم ولا تحويله.

وقد قال علماء التفسير في هذه الآية: إنها نزلت في المسيح وأمه والعزير، وفي كل رجل صالح أو نبي.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: إنها نزلت في أناس من الإنس، كانوا يعبدون ناسًا من الجن، فأسلم الجن، وتمسك الإنس بعبادتهم.

فالحاصل: أنها نزلت في الصالحين والأنبياء، وكفَّر الله عابديهم بذلك، وأخبر أنهم لا يملكون كشف الضر عن عابديهم ولا تحويله.

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ۝١٣ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر: ١٣، ١٤].

فسمىٰ دعاءهم لهم شركًا، مع أنهم لم يدعوهم إلا لأنهم شفعاء، ما دعوهم لأنهم يملكون الضر والنفع، أو يخلقون أو يرزقون، بل قال الله عنهم: إنهم قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣]، وقالوا: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، فكفرهم بذلك، وهم لم يعتقدوا إلا أنهم شفعاء ومقربون،

ولم يزعموا أنهم يخلقون أو يرزقون، أو ينفعون أو يضرون.

وقال تعالىٰ: ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ [المؤمنون:١١٧] سماهم كفارًا وهم ما عبدوهم لأنهم ينفعون أو يضرون، أو يستقلون بجلب النفع، أو دفع الضر، أو يخلقون، وإنما عبدوهم لأنهم بزعمهم يقربونهم إلىٰ الله زلفىٰ، ويشفعون لهم عنده.

وقال ﷻ: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [الأحقاف:٥، ٦] فهذه عامة للأنبياء والصالحين وغيرهم.

والمقصود أن أهل العلم قاطبة قد أجمعوا علىٰ أن من عبد غير الله؛ صنمًا أو نبيًا أو صالحًا أو جنيًا أو غير ذلك، فهو كافر مطلقًا، ولو كان المعبود نبيًا أو صالحًا. وهذا إجماع أهل العلم قاطبة، والأدلة علىٰ ذلك من قول الله ﷻ، وقول رسوله ﷺ واضحة، وقد تقدم بعضها، والله جل وعلا ولي التوفيق][1].

❊❊❊

(١) هذه القاعدة لم يتناولها الشيخ ابن باز بالشرح، واستللنا هذا التعليق من «مجموع فتاوىٰ ومقالات متنوعة» (٣/ ١٩٣) تحت عنوان: (أسئلة مهمة وجوابها).

القاعدة الرابعة

* أَنَّ مُشْرِكِي زَمَانِنَا أَغْلَظُ شِرْكًا مِنَ الأَوَّلِينَ؛ لِأَنَّ الأَوَّلِينَ يُشْرِكُونَ فِي الرَّخَاءِ، وَيُخْلِصُونَ فِي الشِّدَّةِ، وَمُشْرِكُو زَمَانِنَا شِرْكُهُمْ فِي الرَّخَاءِ وَفِي الشِّدَّةِ. وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [العنكبوت:٦٥].

تَمَّتْ وَصَلَّى اللهُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ

التعليق:

القاعدة الثالثة والرابعة: أنّ النبي ﷺ ظهر في أناس متفرقين في عباداتهم، هذه هي القاعدة الثالثة وذكر بعدها الرابعة من القواعد الأربع التي من عقلها وفهمها جيدًا عقل دين المشركين وعقل دين المرسلين، وعرف الفرق بينهما وهي القواعد المهمة الواضحة التي بيّن فيها المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ حقيقة الشرك وما عليه المشركون وأوضح فيها حقيقة ما دعا إليه النبي ﷺ وما أرشد إليه، وما بعثه الله به.

فمن عقل هذه القواعد الأربع، كما ينبغي كان على بصيرة ومعرفة بدين المرسل، وقد تقدمت القاعدة الأولى في بيان أنّهم مُقِرّون بتوحيد الربوبية، وأنّهم لا ينكرون أنّ الله هو الخالق، الرّازق، المدبر، المحيي، المميت، الرّزّاق للعباد، يعرفون هذا، ولهذا أقرّوا به لما سئلوا: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [الزخرف:٨٧] كما تقدم.

وبيَّن في القاعدة الثانية: أنهم يقولون: ما دعوناهم وتوجهنا إليهم غلا لطلب القربة والشفاعة، يعني: أنَّهم ما توجهوا إليهم يعتقدون فيهم الخلق والرزق، فهم يعلمون أنَّ الخلاق والرزاق هو الله، ولكنهم عبدوهم بقصد شفاعتهم وتقريبهم إلىٰ الله، يقول تعالىٰ علىٰ لسانهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣]، ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس:١٨]، وهذا هو شركهم يقولون: إننا دعوناهم وتوجهنا إليهم ليقربونا إلىٰ الله، وليشفعوا لنا عند الله، والله هو الرازق الخالق ﷻ، وأمَّا شرك المشركين المتأخرين، فشركهم دائم، في الرخاء والشدة، فهم يشركون مع الله الأنبياء وغيرهم، وبعضهم أشرك في الربوبية واعتقد أنَّ بعض المشايخ وبعض الصالحين يتصرّف في الكون، ويتصرَّف في الناس، وهذا من سخافة العقول وضلالها، فصاروا أسْفَهَ من المشركين الأولين، وأقلَّ عقلًا وأعظم شركًا.

تقدم تفصيل الشفاعة، وأنَّ الشفاعة شفاعتان: شفاعة مرضيَّة وهي التي يأذن الله بها ويرضاها كشفاعة النبي ﷺ، لأهل الموقف حتىٰ يقضي بينهم بإذنه سبحانه، وشفاعته في أهل التوحيد حتىٰ يدخلوا الجنة بإذنه ورضاه ﷺ(١).

وشفاعة باطلة وهي الشفاعة التي يطلبها المشركون من غير الله كالأنبياء أو الصالحين، أو الملائكة، أو الجن، أو من الأشجار، وهي شفاعة باطلة، قال الله تعالىٰ فيها: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدثر:٤٨] ويقول تعالىٰ: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾﴾ [غافر:١٨]، وهذه شفاعة باطلة؛ لأنَّهم طلبوها من غير الله وتوسلوا إليها بالشرك فصارت باطلة.

---

(١) جزء من حديث الشفاعة الطويل المشهور المتفق عليه عن أنس ﷺ أخرجه البخاري (٧٥١٠)، ومسلم (١٩٣).

ثم ذكر في القاعدة الثالثة أنَّ النبي ﷺ ظهر في أُناسٍ شركهم متنوع، فمنهم من يعبد الأنبياء، ومنهم من يعبد الملائكة، ومنهم من يعبد الصالحين، ومنهم من يعبد الجن، ومنهم من يعبد الأشجار والأحجار، ومنهم من يعبد الشمس وذكر الآيات الدالة على ذلك مثل قوله جلّ وعلا: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [آل عمران:٨٠].

فجعل عبادة الملائكة والأنبياء كُفرٌ، وذكر في قصة عيسىٰ والنصارى: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ [المائدة:١١٧]، وذكر في الأشجار والأحجار والصالحين: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ [النجم:١٨، ١٩]، واللات: رجلٌ صالح، ومناة حجر، والعُزّىٰ شجرة، فقاتلهم الرسول ﷺ وقاتلهم الصحابة ولم يفرقوا بينهم، فالشرك واحد وإنْ تنوع المعبودون، كالذي يعبد الشمس، أو القمر، أو الملائكة، أو الصالحين، أو النجوم، أو غيرهم، فكلهم مشركون يقول تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة:٥]، ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣]، ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴿٢﴾﴾ [الزمر: ٢]، ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [الحج: ٣٤]، فمن خالف هذه الآيات، وما جاء في معناها فقد أشرك سواءٌ فعل ذلك مع الأنبياء أو مع الصالحين أو مع الملائكة أو مع الجن أو مع النجوم أو مع الشمس أو مع القمر أو غير ذلك، ولهذا أنزل الله جلّ وعلا فيهم: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ يعني: الشرك ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩] فالشرك يطلق عليه فتنة، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ يعني: حتىٰ لا يقع شرك بالله ويكون الدين كُلُّه لله، فالاختلاف يُسمىٰ فتنة، والمعاصي تسمىٰ فتنة، ولكن المقصود في هذه الآية هي فتنة الشرك بالله، كما قال جلّ وعلا: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾

﴿قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢١٧] يعني: الشرك.

فدل ذلك على أنَّ الواجب على ولاة الأمور أن يقاتلوا عُبَّاد غير الله مطلقاً كائناً من كان إذا دعوا إلىٰ الله وأرشدوا، فإنْ لم يقبلوا وجب قتالهم مع القدرة ﴿فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦] ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩] ويقول جلَّ وعلا: ﴿ٱنفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [التوبة: ٤١] ويقول جلَّ وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾ [الصف: ١٠، ١١].

ومما يتعلق بعبادة الأحجار والأشجار حديث أبي واقد الليثي لما خرجوا إلىٰ حُنين، وكانوا حُدثاء عهدٍ بالكفر مروا علىٰ أناسٍ من المشركين يعبدون سدرةً، ويعظمونها ويُعلقون عليها السِّلاح يقولون: إنَّه إذا عُلِّق عليها يكون أمضىٰ وأقوىٰ، فقال المسلمون: اجعل لنا ذات أنواط، كما لهم ذات أنواط، فقال النبي ﷺ: الله أكبر إنَّها السُّنن قلتم والذي نفسي بيده كما قال بنو إسرائيل لموسىٰ: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨] الحديث رواه الترمذي وصححه(١) فجعل طلب إيجاد شجرة تعبد، مثل قول بني إسرائيل ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ فإذا قال: نريد شجرة نعبدها أو حجراً نعبده، أو قبراً نعبده تعلق عليه السلاح، ندعوه، نستغيث به، ننذر له، فهو مثل قول بني إسرائيل ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ وهذه قاعدة عظيمة مع القاعدتين السابقتين.

(١) أخرجه الترمذي (٢١٨٠)، وصححه العلامة الألباني في «صحيح وضعيف سنن الترمذي».

ثم أوضح في القاعدة الرابعة: أنَّ شرك الأولين أخفُّ من شرك المتأخرين، فشركُ المتأخرين أعظمُ وأقبحُ، فالأولون شركهم كان في الرخاء ويُخلصونَ في الشدةِ، أمَّا هؤلاء المشركون في غالب البلدان، فشركهم دائمٌ في الرخاء والشدة، كعُبَّاد البدوي وعُبَّاد الحسين، وعُبَّاد الشيخ عبد القادر الجيلاني ... وغيرهم، فالواجب الحذر من شرك المشركين في الشدة والرخاء دقيقه وجليله.

ومما يدل على أنَّ شرك المشركين في الرخاء دُون الشِّدَّة قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ ﴾ [العنكبوت:٦٥]، يعني: الباخرة أو السفينة ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [العنكبوت:٦٥] يعني: أنَّهم كانوا إذا ركبوا البحر وخافوا أنْ يغرقوا في البحر أو تغرق سفنهم، دعوا الله مخلصين له العبادة، فإذا نجاهم إلى البر وسَلِمُوا عادوا إلى الشرك، يقول جلَّ وعلا في آية أخرى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ﴾ [الإسراء: ٦٧] وهكذا في الآية: ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [لقمان:٣٢] هكذا حال المشركين عند الشدائد، يخلصون لله العبادة، ويعلمون أنَّه يُنْجِي وأنَّه لا إله غيره، وإذا جاء الرخاء وقعوا في الشرك مع آلهتهم وأصنامهم، أما هؤلاء المشركون في هذا الوقت فشركهم دائم فلا بصيرة عندهم، فيعبدون غير الله في الرخاء والشدة، ولا تمييز عندهم لضعف العقول وغلبة الجهل، نسأل الله العافية والسلامة وفق الله الجميع.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

الفهرس

